نُظُم الصوغ الأسلوبي في قصيدة السياب (رحل النهار)

م.د. أحمد عبيس عبيد المعموري
المديرية العامة لتربية بابل
Ahmedalma400@yahoo.com

ملخص البحث

تمثّل قصيدة السياب (رحل النهار) إحدى القصائد التي تجسّد الحياة العصيبة التي عاشها السياب، ولاسيّما في أواخر عمره، بعد أن غلب عليه المرض وأخذ يفترس أحلامه وأمانيه. هذه القصيدة توثّق رحلته إلى ما وراء البحار متنقلا بين مشفيات بيروت ولندن وباريس والكويت طلبا للشفاء، فيما تنتظر زوجته أو حبيبته عودته من الرحلة.

ولقد وجد الشاعر في رمز السندباد المعروف بكثرة رحلاته معادلا موضوعيا حمّله آلامه ومعاناته وتجربته مع المرض. وقد اعتمدنا الأسلوبية منهجا في دراسة النص في مستوياته الثلاثة (الدلالي والتركيبي والصوتي)، معتمدين البنية اللغوية أساساً في تحديد الملامح الأسلوبية.

وتجلّى لدينا غلبة طابع الحزن على ألفاظ القصيدة، وهو انعكاس للأجواء النفسية المريرة التي عاشها الشاعر، فيما هيمنت اللغة المجازية على طبيعة الاستعمال اللغوي الذي كثيرا ما انزاحت التعبيرات اللغوية فيه عن طبيعتها المألوفة، ومثّل التكرار وتناغم بعض الأصوات في مواضع محددة مع تلوّن روي القصيدة بين الراء والدال أهم الملامح الأسلوبية على المستوى الصوتي.

الكلمات مفتاحية: رحل، النهار، تنتظرين، لن يعود، السندباد، البحار، المرض، الموت .

Abstract

Words in the sense disease poem Sayab day gone one of the pomes that embody the difficult life lived by sayab, especially in the late age. After he overcame the disease and took the prey of his dreams and aspirations. These poems document his journey to the overseas mobile between the hospitals of Beirut, London, Paris and Kuwait to head, while waiting for his wife or his beloved return from flight.

He have found this thing that is suffering from the disease. We have adopted the methodological approach in the study of text in its three levels of semantic, syntactic and sound, relying on linguistic structure mainly in the identification of stereotypes.

Our Globe has shown the character of sorrow over the poetic words, and it is are flection of the bi Her psychological atmosphere experienced by the poet, the metaphorical language dominated the nature of linguistic usage in which linguistic expressions were often replaced by their familiar nature the form of repetition and the harmony of some voices In specific positions with the coloring of the poem Roy between the most important features and methodological stylistic level.

Key words: Gone, Day, waiting, will not return, al Sindbad, the sea, the disease, the death

مقدمة

تنبع خصوصية العمل الأدبي من كونه نصا لغويا بامتياز، يتباين فيه نص عن آخر تبعا لطبيعة الاستعمال اللغوي الذي يوفره المبدع لنصه، وكيف ينتقي الألفاظ ومن ثم يوزعها على وفق محوري الاختيار والتوزيع، اعتمادا على ما يمتلكه من خبرة وثقافة لغوية وغير ذلك. وعلى أساس ذلك الاستعمال تتحدد قيمة النص.

ولأهمية ذلك الاستعمال اللغوي في التعبير عن التجربة الشعورية فقد جعلناه نصب أعيننا ونحن ندرس قصيدة السياب(رحل النهار) تحت عنوان (نُظُم الصوغ الأسلوبي في قصيدة السيّاب رحل النهار) وهذه القصيدة نظمها السياب عام ١٩٦٢ في أثناء وجوده في بيروت طلبا للعلاج بعد أن تفاقم المرض عليه، أي أنها نظمت قبيل وفاته بسنتين، وهي تنتمي إلى مجموعته (منزل الأقنان).

وعملنا هذا نحاول فيه الكشف عن خصوصية التعبير التي ميزته عن بقية النصوص، وعن كل مهيمن أو منبه أسلوبي ظهر على سطح النص، ولم يكن للقارئ تجاوزه. جاعلين إيّاه منطلقا لفهم أبعاد النص ومضامينه. من خلال دراسة النص في المستويات الثلاثة (الدلالي والتركيبي والصوتي).

النص:

رحل النهار

ها إنّه انطفأت ذبالته على أفق توهّج دون نار

وجلست تنتظرين عودة سندباد من السفار

والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود

هو لن يعود

أوَمَا علمتِ بأنّه أسرتْه آلهة البحار

في قلعة سوداء في جزر من الدم والمحار

هو لن يعود

رحل النهار

فلترحلي ، هو لن يعود

الأفق غابات من السحب الثقيلة والرعود

الموت من أثمارهن وبعض أرمدة النهار

الموت من أمطارهن وبعض أرمدة النهار

الخوف من ألوانهن وبعض أرمدة النهار

رحل النهار

وكأنّ معصمك اليسار

وكأنّ ساعدك اليسار، وراء ساعته.. فنار

في شاطئ للموت يحلم بالسفين على انتظار

رحل النهار

هيهات أن يقف الزمان، تمرّ حتى باللحود

خطى الزمان وبالحجار
رحل النهار ولن يعود
خصلات شعرك لم يصنها سندباد من الدمار
شربت أجاج الماء حتى شاب أشقرها وغار
ورسائل الحب الكثار
مبتلة بالماء منطمس بها ألق الوعود
وجلست تنتظرين هائمة الخواطر في دوار:
سيعود. لا. غرق السفين من المحيط إلى القرار
سيعود. لا. حجزته صارخة العواصف في إسار
يا سندباد ، أما تعود؟
كاد الشباب يزول ، تنطفئ الزنابق في الخدود
فمتى تعود؟
أوّاه ، مُدَّ يديك يبنِ القلبُ عالمه الجديد
بهما ويحطم عالم الدم والأظافر والسعار
يبني ولو لهنيهة دنياه
آه متى تعود؟
أترى ستعرف ما سيعرف، كلما انطفأ النهار
صمت الأصابع من بروق الغيب في ظلم الوجود
دعني لآخذ قبضتيك ، كماء ثلج في انهمار
من حيثما وجهت طرفي.. ماء ثلج في انهمار
في راحتي يسيل، في قلبي يصبُّ إلى القرار
يا طالما بهما حلمت كزهرتين على غدير
تتفتحان على متاهة عزلتي
رحل النهار
والبحر متسعٌ وخاوٍ لا غناء سوى الهدير
وما يبين سوى شراع رنّحته العاصفات وما يطير
إلّا فؤادك فوق سطح الماء يخفق في انتظار
رحل النهار
فلترحلي. رحل النهار

(الأعمال الشعرية الكاملة: ١٤١-١٤٢)

المستوى الدلالي

لا شك أنّ اللفظ يعد العلامة الدلالية الأولى التي تكون منطلقا لفهم النص الأدبي وإدراك مضامينه، ويتأكد مدلول أيّة لفظة من خلال تتبع مواضعها في نص ما، ومن مجموع مدلولات ألفاظ أخر يتجلى الفهم الأوسع والأوضح لمراد المبدع، والعمل الأدبي (وحدة تتآزر جميع عناصرها لأداء غرض واحد، فمن أيّها ابتدأت فأنت واصل حتما إلى الغرض الذي هو روح العمل الأدبي)[١]. وأجزاء النص مهما تباينت فيما بينها فإنّها ما انفكت تدور حول نواة دلالية واحدة اختلف في موضعها من النص؛ في العنوان أو في الكلمات الأولى من القصيدة[٢]، لكن من المرجح أنّ بؤرة الشعر أو النواة الدلالية فيه، لا تكمن في مركز ما في النص الشعري بل إنّ كل بنى النص الشعري هي عبارة عن بؤر أو نوى دلالية لأنّها "صيغ متعددة لمولد بنيوي واحد، فالنص في حقيقة الأمر تنويع أو توزيع لبنية واحدة"[٣].

لقد ظهرت على سطح التشكيل اللغوي مجموعة من الدوال التي شكلت علامات على مضامين حوتها قصيدة السياب(رحل النهار)، وأولى البؤر الدلالية التي نواجهها في النص هي العنوان الذي غالبا ما يحدد هوية النص، فضلا عمّا يمدّنا به من زاد يعين على تفكيك النص ودراسته وفهم ما غمض منه[٤]، وعنوان القصيدة (رحل النهار) يتكون من مفردتين، تشير الأولى إلى الرحيل الذي يوحي بمشاعر الحزن والألم والحسرة، لأنه يعني رحيل الحبيب أو الصديق أو الأهل، وإسناد الرحيل إلى المفردة الثانية في العنوان (النهار) فيه خرق للمألوف، لأن الرحيل غالبا ما يقترن بشخص محدد، لكنه هنا أُسنِد على وفق ما يتيحه المجاز من بناء علاقات لغوية جديدة تمنحنا مدلولات جديدة، فشكل العنوان بهذا الإسناد منبها أسلوبيا يشير إلى انتهاء الحركة والنشاط والدخول في عالم الليل حيث السكون والسبات والظلام واشتداد الألم والأسى للمحبين وللمفارقين.

وهذا هو مدلول أولي يمكن أن يشير إلى مدلول آخر هو رحيل العمر – عمر الشاعر– الذي بدا وشيكا بسبب سوء حالته الصحية تحت وطأة المرض وتفاقمه عليه، فرحيل النهار هو معادل موضوعي لرحيل العمر ولا سيما أنّ النهار والعمر دالّان زمانيان ويتأكد هذا المعنى بما أردفه في قوله (ها إنه انطفأت ذبالته) الذي يشير إلى انطفاء ضوء النهار، الذي يوحي ضمنا بانطفاء الحياة وانتهائها بالنسبة إليه، والشاعر هنا مثل أي شاعر "لا يعبر عن أفكاره ومشاعره تعبيرا مباشرا، بل يبحث عن أشياء أخرى تعادلها أو تنوب عنها في نقلها إلى القارئ"[٥].

ويعضد كون المراد من (رحل النهار) هو رحيل العمر أنّ الشاعر قد كرر الجملة تسع مرات في القصيدة، وأكّده في جملة (هو لن يعود) التي تكررت ثلاث مرات، إنّ هذا التكرار يكشف عن عناية خاصة بالمضمون الذي شغل حيزا من تفكير الشاعر واهتمامه، فهو تكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، ويكون ذا دلالة نفسية قيمة في فهم النص الأدبي وتحليل نفسية كاتبه[٦]، وله فائدة في تقرير المعنى وإثباته[٧]، علاوة على ذلك هناك قرائن لغوية أخر (ألفاظ أو جمل) تفضي جميعها إلى رحيل الشاعر المُعبَّر عنه برحيل السندباد من قبيل قوله:

سيعود . لا . غرق السفين من المحيط إلى القرار

سيعود . لا . حجزته صارخة العواصف في إسار

لقد اتخذ السياب من السندباد معادلا موضوعيا له حمّله بعض مضامينه الشعرية، لأنه وجده مماثلا له في ترحاله في البلاد، وهو مشابه لحال (عوليس) البطل الأسطوري اليوناني الذي يعود من رحلته الطويلة بعد أن ظنّ الجميع أنّه مات إلّا زوجته (بنلوب) التي كانت على يقين من عودته، لكن الفارق يكمن في أنّ الشخصيتين تعودان بعد الرحلة أما الشاعر فلن يعود، لأن حياته توشك أن تنطفئ على عكس نهايات القصص التي يعمد فيها كُتّابها إلى النهايات السعيدة

سبيلا لإعادة ثقة الإنسان بنفسه، وبث الأمل والتفاؤل في نفوس الناس[٨]. هذه الشخصيات التي يتحدث الشاعر على لسانها وإن تبدو –في بعض الأحيان– غيرية بيد أنها ليست إلّا أوعية يطرح من خلالها الشاعر همومه الأرضية والكونية[٩]. والحال نفسه ينطبق على زوجته التي تبقى تنتظر عودته من السفر:

وجلست تنتظرين عودة سندباد من السفار

والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود

هو لن يعود

ويلاحظ أنّ الشاعر لم يقل أن البحر(يقول أو ينبئ أو يشير أو يهمس أو يوحي أو يقرر أن سندباد لن يعود) بل ذكر أن البحر يصرخ، للدلالة على اختيار مقصود وعن إدراك بعدم عودة السندباد. ويراد من هذا الاختيار أيضا تقرير الحالة لزوجته لكي لا تنتظر، أما السندباد فهو لم يحجم عن العودة راغبا، إنما كان يخوض حربا ضد قوى غيبية خارقة وقع عندها أسيرا فسجنته في قلعة سوداء في جزر بعيدة:

أوَما علمتِ بأنّه أسرته آلهة البحار

في قلعة سوداء من جزر من الدم والمحار

هو لن يعود

رحل النهار

فلترحلي. هو لن يعود

فالقرائن كثيرة على عدم عودته، والقلعة تشير ضمنا إلى الحصن المنيع، ويزيدها قتامة وشؤما أنها سوداء تنعدم فيها الحياة، ولا أمل للوصول إليها أو الخلاص منها، لأنها دال من الدوال التي تُحيلُ إلى الموت وانعدام الأمل في الحياة، ويتأكد هذا بغابات من السحب الثقيلة والرعود والخوف والموت وهي جميعها من ثمار أرمدة النهار، والذي نجده في مواضع كثيرة من القصيدة:

الأفق غابات من السحب الثقيلة والرعود

الموت من أثمارهن وبعض أرمدة النهار

الموت من أمطارهن وبعض أرمدة النهار

الخوف من ألوانهن وبعض أرمدة النهار

وينكر السياب على الزوجة انتظار السندباد/الشاعر؛ لأنه لم يحفظ خصلات شعرها من الدمار، ولم يوفر لها مشربا صافيا:

خصلات شعرك لم يصنها سندباد من الدمار

شربت أجاج الماء حتى شاب أشقرها وغار

ورسائل الحب الكثار

مبتلة بالماء منطمس بها ألق الوعود

وفي لفظة الدمار شيء من الفجوة الدلالية لأول وهلة لأنها توحي بمخلفات الحروب، فما علاقتها بخصلات الشعر؟ هذه الفجوة سرعان ما تزول بإدراك أن المراد بالدمار هو الشيب ، وأنّ الشاعر أتى بهذه اللفظة قصد التهويل وتعظيم الأثر الجسيم الذي لحق بالزوجة من جراء الانتظار وتحمّل المصاعب والأهوال بدلالة البيت الشعري اللاحق الذي يعلن الشيب صراحة، ويشير تعبير (أجاج الماء) إلى صعوبات الحياة والمشقة التي عاشتها فلم يكن شربها صفو الماء بل